

تفسير البحر المحيط

@ 422 @ وأبو حيوة : وما قدرُوا بتشديد الدال ، حق قدره : بفتح الدال ، أي ما عظموه حقيقة تعظيمه . والضمير في قدرُوا ، قال ابن عباس : في كفار قريش ، كانت هذه الآية كلها محاورة لهم وردَّها عليهم . وقيل : نزلت في قوم من اليهود تكلموا في صفات الله وجلاله ، فألحدوا وجسموا وجاءوا بكل تخطيط . وهذه الجملة مذكورة في الأنعام وفي الحج وهنا . . ولما أخبر أنهم ما عرفوه حق معرفته ، نبههم على عظمتهم وجلاله شأنه على طريق التصوير والتخييل فقال : { وَالْأَرْضُ جَمْعًا قَدِيمًا يُؤْمِنُ الْقَدِيمَةُ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ } . وقال الزمخشري : والغرض من هذا الكلام ، إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعة تصوير عظمتهم والتوقيف على كنه جلاله لا غير ، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز . انتهى . ويعني : أو جهة مجاز معين ، والإخبار : التصوير ، والتخييل هو من المجاز . وقال غيره : الأصل في الكلام حمله على حقيقته ، فإن قام دليل منفصل على تعذر حمله عليها ، تعين صرفه إلى المجاز . فلفظ القبضة واليمين حقيقة في الجارحة ، والدليل العقلي قائم على امتناع ثبوت الأعضاء والجوارح في تعالى ، فوجب الحمل على المجاز ، وذلك أنه يقال : فلان في قبضة فلان ، إذا كان تحت تدبيره وتسخيره ، ومنه : { أَوَّ مًا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ } ، فالمراد كونه مملوكًا لهم ، وهذه الدار في يد فلان ، وقبض فلان كذا ، وصار في قبضته ، يريدون خلوص ملكه ، وهذا كله مجاز مستفيض مستعمل . وقال ابن عطية : اليمين هنا والقبضة عبارة عن القدرة ، وما اختلج في الصدر من غير ذلك باطل . وما ذهب إليه القاضي ، يعني ابن الطيب ، من أنها صفات زائدة على صفات الذات ، قول ضعيف ، ويحسب ما يختلج في النفوس التي لم يحصها العلم . . قال عز وجل : { سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } : أي منزّه عن جميع الشبه التي لا تليق به . انتهى . وقال القفال : هذا كقول القائل : وما قدرني حق قدري ، وأنا الذي فعلت كذا وكذا ، أي لما عرفت أن حالي وصفتي هذا الذي ذكرت ، وجب أن لا تخطئه عن قدري ومنزلتي ، ونظيره : { كَذِبْتَ كَذِبُكَ فُرُونٌ بِاللَّهِ وَكَذِبْتُمْ أَمْوَآتًا فَأَذْذِيَاكُمْ } ، أي كيف تكفرون من هذه صفته وحال ملكه ؟ فكذا هنا ، { وَمًا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ } : أي زعموا أن له شركاء ، وأنه لا يقدر على إحياء الموتى ، مع أن الأرض والسموات في قبضة قدرته . انتهى . { وَالْأَرْضُ } : أي والأرضون السبع ، ولذلك أكد بقوله : { جَمْعًا } ، وعطف عليه { * والسموات } ، وهو جمع ، والموضع موضع تفخيم ، فهو مقتض المبالغة . والقبضة : المرة الواحدة من القبض ، وبالضم

: المقدار المقبوض بالكف ، ويقال في المقدار : قبضته بالفتح ، تسمية له بالفدر ،
فاحتمل هنا هذا المعنى . واحتمل أن يراد المصدر على حذف مضاف ، أي ذوات قبضة ، أي
يقبضهن قبضة واحدة ، فالأرضون مع سعتها وبسطتها لا يبلغن إلا قبضة كف ، وانتصب جميعاً على
الحال . قال الحوفي : والعامل في الحال ما دل عليه قبضته انتهى . ولا يجوز أن يعمل فيه
قبضته ، سواء كان مصدرًا ، أم أريد به المقدار . وقال الزمخشري : ومع القصد إلى الجمع
يعني في الأرض ، وأنه أريد بها الجمع قال : وتأكيد به بالجميع ، أتبع الجميع مؤكدة قبل
مجيء ذلك الخبر ، ليعلم أول الأمر أن الخبر الذي يرد لا يقع عن أرض واحدة ، ولكن عن
الأراضي كلهن . انتهى . ولم يذكر العامل في الحال ، ويوم القيامة معمول لقبضته . وقرأ
الحسن : قبضته بالنصب . قال ابن خالويه : بتقدير في قبضته ، هذا قول الكوفيين . وأما
أهل البصرة فلا يجيزون ذلك ، كما لا يقال : زيد داراً انتهى . وقال الزمخشري : جعلها
طرفاً مشبهاً للوقت بالمبهم . وقرأ عيسى ، والجحدي : مطويات بالنصب على الحال ، وعطف
والسموات على الأرض ، فهي داخلة في حيز والأرض ، فالجميع قبضته . وقد استدل بهذه القراءة
الأخفش على جواز : زيد قائماً في الدار ، إذ أعرب والسموات مبتدأ ، وبيمينه الخبر ،
وتقدمت الحال والمجرور ، ولا حجة فيه ، إذ يكون والسموات معطوفاً على والأرض ، كما قلنا
، وبيمينه متعلق بمطويات ، ومطويات : من الطي الذي هو ضد النشر ، كما قال تعالى : {
تُوعَدُونَ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِلِّ } ، للكتاب وعادة طاوي السجل أن
يطويه